

الحلقة (٢٢)

وكان الوقت في الحلقة الماضية قد قصر علينا، فوقفنا في أثناء شرح حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" متفق عليه، وزاد مسلم "والنصارى"، ولهما من حديث عائشة رضي الله عنها كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وفيه "أولئك شرار الخلق".

هذا الحديث برواياته جمع في الدعاء على الكفار واليهود والنصارى، وبين السبب في ذلك هو اتخاذ القبور أو قبور أنبيائهم مساجد، وتقدم معنا بأن قاتل هنا تفيد معنى اللعن، واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى، أما قول النبي صلى الله عليه وسلم أولئك هم شرار الخلق فإذاً بهذا استحقوا العقوبة، وقد تقدم معنا بعض الأحكام المستنبطة من هذا.

من مسائل هذا الحديث:

الحديث دل على عدم صحة الصلاة في تلك المساجد التي فيها القبور أو فيها التماثيل، لمشابهة ذلك بعبادة الأصنام، وكما جاء النهي عن الصلاة في المقابر، ولعلنا نأتي شيئاً من حكم الصلاة في المقابر، ونذكر فيها عموماً وخصوصاً، فيكون بعد هذا إن شاء الله تعالى.

أيضاً هذا الحديث برواياته حديث أبو هريرة دل على أن من بنى مسجداً على قبر أو دفن ميتاً في

مسجد ووضع الصور والتماثيل في المسجد بذلك فهو من شرار الخلق، لماذا؟

لما يحدث أو يُحدث بسبب فعله من الفتنة الكبيرة وهي الشرك بالله تعالى، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "العلة التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيراً من الأمم إما في الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك" وذكر رحمه الله تعالى أن "الشرك بالرجل الذي يُعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر، ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها أي عند القبور، ويخشعون ويخضعون ويعبدونها بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ولا وقت السحر، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي صلى الله عليه وسلم مادتها حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقاً، وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته، أما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور تبركاً بالصلاة في تلك البقعة فهذا عين المحادة لله ورسوله، والمخالفة لدينه، وابتداع دين لم يأذن به الله تعالى" انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

فكلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى كلام جميل في هذه المسألة، فالمشرك أو الذي يعبد الوثن بلا شك أنه متعلق به، وما عبده إلا لتعلقه به، ويعتقد فيه اعتقادات كثيرة، فيقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: أن الذي يعبد صاحب القبر يكون أكثر تعلقاً بمن يعبد الصنم، فالتعلق بالأشخاص وبمن يُرجى فيهم الصلاح يكون أكثر ويكون أقوى تأثيراً في النفوس، فلذلك كان فعلهم عند القبور

فعلاً كما ذكر شيخ الإسلام لا يفعلونه في المساجد ولا في أوقات السحر، يعني عندما يقوم الإنسان يصلي لله سبحانه وتعالى يدعو في آخر الليل عند نزول الله سبحانه وتعالى في الثلث الأخير من الليل، بلا شك الإنسان في هذه الحالة يكون مقبلاً على الله سبحانه وتعالى، وهذا عمل أهل التوحيد، لكن المشركين يقومون عند تلك الأضرحة ويدعونها ويتقربون ويتضرعون ويتذللون وينكسرون أكثر من انكسار وتذلل ذلك الموحد بين يدي الله سبحانه وتعالى، فلهذا جاء النهي، وهذا حسم لمادة الشرك، لأن النبي صلى الله عليه وسلم عندما نهى عن ذلك من أجل أن لا يعتقد في أهل القبور أو في الصالحين الذين دُفِنوا فيها يُعتقد فيهم ما ليس لهم، أو ربما يُساوونهم بالله سبحانه وتعالى، أو ربما تعدى الأمر ذلك، فلذلك النبي صلى الله عليه وسلم حسم هذا الطريق وسد هذا الطريق بالنهي عن الصلاة عند القبور، وسنأتي إن شاء الله تعالى كما ذكرت، هناك ما يستثنى سنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر رحمه الله تعالى أن هذا حتى وإن كان الإنسان لا يقصد بركة البقعة، يعني الذي يكون عند الأضرحة حتى وإن لم يقصد البركة في هذا المكان، لكن إذا قصد البركة فهذه عين المحادة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم هذه أشد، يعني إذا كان يقصد بذلك حصول البركة بصلاته أو دعائه عند الأضرحة فهذا بلا شك أعظم من الأولى وهذه عين المحادة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمخالفة لدينه، وابتداع دين لم يأذن به الله تعالى.

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى: "وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه جزم بما لا يحتمل الشك أن هذه المبالغة واللعن -يقصد المبالغة في النهي عن الصلاة عند المقابر أو على المقابر المقصود بذلك، واللعن يعني من قول النبي صلى الله عليه وسلم قاتل الله اليهود والنصارى وما شابه من ألفاظ الوعيد التي جاءت في الأحاديث بهذا- فيقول رحمه الله تعالى: جزم بما لا يحتمل الشك أن هذه المبالغة واللعن والنهي ليس لأجل نجاسة الأرض من رفات الأموات، وإنما خشية من التدرج عندها إلى عبادتها أو عبادة أهلها، يقول فإنه لعمر الله من هذا الباب دخل الشيطان على عباد يغوث ويعوق ونسرا -هذه أسماء أصنام كانت تعبد في الجاهلية، فيقول إنما دخل الشيطان لهم من هذا الباب- ودخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة" انتهى كلامه رحمه الله تعالى، وبلا شك إنما دخل عليهم الشرك من هذا الباب، وإنما كانوا يضعون الصور والتماثيل لأناس صالحين يعتقدون صلاحهم، وكانت لهم أعمالاً طيبة، فكانوا يبنون على قبورهم لتذكيرهم وعمل عملهم، حتى إذا طال عليهم الأمد جاء الشيطان فأدخلهم في الشرك فعبدوا تلك القبور وتضرعوا إلى الأموات فيها، وهم لا شيء بأيديهم، هم لا ينفعون أنفسهم في تلك الحالة، فكيف ينفعون غيرهم؟! فلذلك جاء النهي عن الصلاة عند القبور وعند الأضرحة لمنع الشرك ولسد الذريعة في هذا.

فالشارع عندما نهى عن الصلاة على المقابر إنما كان له هدف يهدف إليه وهو منع الناس الوقوع في

الشرك، فقد يتدرج الشيطان مع الإنسان يبدأ معه من الصغيرة حتى يصل إلى الكبيرة وإلى مبتغاه، وهذا مطلب هام عند الشيطان، فلذلك النبي صلى الله عليه وسلم سد عليه الباب في هذا، فلا يصلي على القبور ولا إلى المقابر، وتوعد على ذلك، ويدل ذلك على أنه من الكبائر وبلا شك أنه إذا أدى إلى عبادتها هذا بلا شك شرك مخرج من الملة وهو أدهى وأمر.

وفعل اليهود إنما كانوا يجعلون التماثيل ويجعلون الصور على القبور، حتى إذا جاء بعد فترة عبدوها أو عبدوا أهلها، فلذلك النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليهم وقال: **"قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"**.

تأتي معنا مسألة في هذا الحديث وهي الصلاة في المقابر:

الآن ما تقدم هو في بناء المساجد على القبور، وبلا شك الآن ينظر إن كان المسجد أقدم من القبر فينبش القبر، يعني هذا إذا حصل الخطأ ودفن فيه، الأصل ألا يدفن في المسجد، لكن إذا حصل فينبش ويخرج من المسجد، أما إذا كان دفن الإنسان في القبر ثم بني المسجد عليه فيهدم المسجد، ولا تقام الصلاة فيه مطلقاً، ولا يجوز ذلك، وهذا مقتضى الوعيد، ومقتضى الدعاء واللعن الذي جاء في هذا الحديث برواياته جميعها، النبي صلى الله عليه وسلم توعد على ذلك.

فإذاً لو دفن الرجل أو الصالح سواءً كان رجلاً أو امرأة، دفن في القبر فجاء من يبني على القبر مسجداً، يُقال هذا لا يجوز ويهدم المسجد ولا يصلى فيه، أما إذا كان المسجد هو أولاً ثم جيء بالميت فُدُن فيه، فيمنع، فإن دفن فينبش ويُخرج الرُفات من المسجد ولا يدفن فيه.

ولكن هنا تأتي مسألة وهي الصلاة في المقبرة:

ربما هنا من غير اعتقاد صلاح أحد أو فساد، إنما صلاة في المقبرة، فالصلاة في المقبرة لا يصلى فيها مطلقاً، هذا مقتضى النصوص، سواءً كان تلك الصلاة فريضة أو كانت نافلة، وسواءً كانت الصلاة ذات ركوع وسجود أو لم تكن، فهي في الأصل في العموم لكن يأتي استثناء، ويقصد بالصلاة التي ليس لها ركوع ولا سجود هي صلاة الجنائز، صلاة الجنازة، لكن هذه تستثنى، نذكر هذا إن شاء الله تعالى، لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك فيشمل كل صلاة.

ويستثنى من هذه الصلوات: الصلاة على الجنازة إذا لم يصل عليها الإنسان خارج المقبرة فله أن يصلي عليها في المقبرة، سواء قبل الدفن أو بعد الدفن، إذا كان لم يصل عليها من قبل وجاء فأراد أن يصلي على تلك الجنازة صلاة الجنازة، فله أن يصلي قبل الدفن أو بعد الدفن، ما الدليل على ذلك؟

أما الصلاة عليها بعد الدفن فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين وغيرهما (أنه صلى الله عليه وسلم، فقد امرأة كانت تقم المسجد -أي تنظف المسجد- فسأل عنها فقالوا: إنها ماتت، وكانت قد ماتت بالليل، والصحابة رضي الله عنهم كرهوا أن يُخبروا النبي صلى الله عليه وسلم بالليل فيخرج، فقال لهم هلا آذنتموني -أي أخبرتموني- حتى أصلي عليها وأخرج معها، ثم قال عليه

الصلاة والسلام: دلوني على قبرها، فخرج به إلى البقيع، ودلوه على القبر، فقام وصلى عليها عليه الصلاة والسلام) فإذا النبي ثبت أنه صلى على تلك المرأة بعد ما دفنت.

وفي هذا الحديث أيضاً يعطينا أمراً مهماً ينبغي أن يلتفت إليه: أن العناية بالمساجد أمر مطلوب شرعاً ولذلك يكرم أهله، من يعتني بالمساجد، هذه المرأة ربما الصحابة رضوان الله عليهم احتقروا شأنها، لم تكن من أهل الجاه ولا من أهل المال ولا المناصب، وإلا لو كان الأمر كذلك ربما كان أقاربها سعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن لم يُلقَ لها بالا، فلما ماتت كأنهم رأوا أن يعني إزعاج النبي صلى الله عليه وسلم أعظم من ذلك، فإذا نكفيه الأمر، فصلوا عليها ودفنوها من الليل. بلا شك صلاة النبي صلى الله عليه وسلم ودعاؤه للميت ليس كدعاء غيره بلا شك، فالنبي صلى الله عليه وسلم لما افتقدها سأل عنها، فأخبروه أنها ماتت بالليل، فقال صلى الله عليه وسلم هلاً آذنتموني يعني أخبرتموني هلاً أخبرتموني هذا معنى كلامه صلى الله عليه وسلم، لماذا؟

يعني كان سيخرج، فيصلي عليها ويتبعها، ويحصل له بذلك رفعة في الدرجات، ويحصل لها كذلك أيضاً دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، فلعلهم رأوا أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يُزعج في مثل هذا الليل فكفوا، فخرج صلى الله عليه وسلم وفي هذا تشريع، فخرج صلى الله عليه وسلم حتى أتى قبرها فصلى على القبر، إذاً فهذا دليل مشروعية الصلاة على الجنازة بعد الدفن.

أما قبل الدفن فيقاس على هذا، يعني قبل الدفن يقاس على ما بعد الزمن، فكما أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على هذه المرأة بعد ما دفنت، فكذلك يُصلى على الجنازة في المقبرة قبل الدفن، فالحال فيهما واحد، فلو جيء بالميت وصلي عليه قبل أن يدفن في المقبرة فالحكم كما تقدم من حيث العموم داخل في عموم النهي عن الصلاة في المقبرة، لكنه يخص بفعل النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة على تلك المرأة بعدما دفنت، فكذلك إذا كانت لم تدفن بعد هذا أيضاً يقاس عليه، فلا فرق بين أن يصلي على جنازة مدفونة أو على جنازة غير مدفونة، لأن العلة واحدة وهي الميت الذي يصلي عليه كان في المقبرة، وعمل الناس على هذا على أن يصلي على الميت ولو كان قبل الدفن في المقبرة، فإذا نأخذ من هذا كما تقدم دليلاً على صحة صلاة الجنازة؛ فإذا هذا خصوص من عموم، فالنهي عن الصلاة في المقبرة عام، لكن المستثنى هذه الصيغة من ذلك العموم، فهي تخصص كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في صلاته على تلك المرأة، وقيس عليها لو كانت لم تدفن بعد، فكذلك يصلى والعلة واحدة هي: صلاة على الجنازة في المقبرة، سواء كانت مدفونة أو غير مدفونة، العلة واحدة، فهذه تستثنى من عموم النهي ويكون الحكم على ذلك جواز صلاة الجنازة في المقبرة لفعله صلى الله عليه وسلم، وأما ما عدا ذلك فهو داخل في عموم النهي، ولا يجوز فعل غير هذه الصلاة في المقبرة، كما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم.

هناك حالة في الصلاة وقد يكون البعض يحصل لهم مثل هذه المواقف وبعض المساجد تكون مثل

هذه الحالة، وهي ما إذا كانت الصلاة إلى مقبرة، ليست في المقبرة إنما الصلاة إليها، يعني **كانت المقبرة جهة القبلة، الرجل ما يصلي في المقبرة، وإنما هي في قبلته، يصلي جهتها، لأنه لا بد أن يستقبل القبلة، فصارت بينه وبين الكعبة، فماذا يفعل؟**

إذا كانت الصلاة إلى المقبرة فلعل فيه شيء من التفصيل، ذكر الفقهاء بأن الصلاة إليها تصح إذا كان هناك حائل بينه وبين القبور، وسنذكر ما هو الحائل؟

والدليل في صحة الصلاة في مثل هذا عموم قول النبي صلى الله عليه وسلم **"جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً"** فإذا كلمة مسجد معنى ذلك مكان صالحاً للسجود فيه والصلاة فيه، وهذه الأرض كذلك هي مسجد.

وهناك من كره الصلاة إلى المقابر، وقالوا لأنها أماكن تُهي عن الصلاة فيها فكره استقبالها، وربما يقال بأن هذا موضعاً اختلف العلماء في صحة الصلاة فيها، فكرهت الصلاة إليها خروجاً من الخلاف.

لكن القول الصحيح تحريم الصلاة إلى المقبرة، ولو قيل بعدم الصحة لكان ذلك له وجه، لأن النبي صلى الله عليه وسلم صح عنه في حديث أبي مرثد الغنوي أنه قال صلى الله عليه وسلم: **(لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها)** فهذا يدل على تحريم الصلاة إلى المقبرة أو إلى القبور أو إلى القبر الواحد، لأن العلة من منع الصلاة في المقبرة موجود في الصلاة إلى القبر، فما دام الإنسان يتجه إلى القبر أو إلى المقبرة اتجهاً يقال أنه يصلي إليها فإنه يدخل في النهي.

وإذا كان داخلاً في النهي فلا يصح لقوله صلى الله عليه وسلم **"ولا تُصلوا"** فالنهي هنا عن الصلاة، فإذا صلى إلى القبر فقد اجتمع في فعله هذا طاعة ومعصية، وهذا لا يمكن أن يُتقرب إلى الله به، الطاعة فعل الصلاة، والمعصية فعل الصلاة إلى القبر، فطاعة ومعصية لا يمكن أن يُتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بما حُرِّم عليه.

لكن كما هذا طبعاً كلام فيما تقدم من القول الصحيح تحريم الصلاة إلى المقبرة هذا إذا كان ليس هناك حائل، أي حاجز بين المصلي وبين القبر أو المقبرة، أما إذا كان هناك فاصل **فالقول الصحيح: جواز ذلك**، إذا كان هناك شيء يفصل بين المقبرة وبين المصلي أو المسجد أو المكان الذي يصلي فيه الإنسان فلا حرج في ذلك.

لكن يأتي سؤال ما هو الحد الفاصل؟ ما الذي نعتبره فاصل بين المكان الذي يصلي فيه وبين المقبرة؟

قال الجدار يعتبر فاصلاً، إلا إذا كان الجدار هو جدار المقبرة فهذا النفس منه شيء، لكن لو كان هناك جدار غير جدار المقبرة، مثل مسجد مبني والجدار للمسجد، أو بيت مبني والجدار تابع للبيت وليس للمقبرة فيقولون هذا فاصل، لكن لو كان السور أو هذا الجدار هو جدار المقبرة فهذا قد يكون فيه شبهة، لذلك نقول ألا يصلي إذا كان هذا هو الفاصل فقط، إذا لم يكن إلا جدار المقبرة،

أما إذا وجد جدار آخر ليس له علاقة له بالمقبرة سواء وجد آخر على المقبرة أو لم يكن على المقبرة سور أو فاصل إنما كان هذا لشيء آخر بغير المقبرة، كما قلنا سواء بيت أو مسجد أو أي مكان، فهذا منفصل عن المقبرة، فهذا حال بين المصلي وبين المقابر ولا شك هنا أنه لا نهي عن الصلاة.

أيضاً لو كان بين المصلي وبين المقبرة شارع، فلا نهي في ذلك، ولا يصير مصلياً إليها، هذا بلا شك يقع فيه أو يقع فيه بعض الناس الذين هم يسكنون حول المقابر في المدن يقعون في مثل هذه الأمور، فيحصل لهم الإشكال، ونحن نعرف بعض المقابر بأنها تكون في قبلة البيوت وقبلة المساجد، فإذا وجد شارع يفصل فهذا بلا شك أنه لا يعتبر مصلياً إليها لأن هناك ما يفصل بينه وبين المقبرة.

بعض العلماء ربما قلل شأن الحاجز فقال: يصح أن يكون الحاجز بمقدار سترة المصلي. والسترة هي كما عرفنا من قبل أنها كمؤخرة الرحل، لكن الحقيقة أن هذا المقدار في النفس منه شيء أي تكون بهذا الحجم، فلعل الإنسان لو رأى مصلياً مستقبلاً المقبرة، إذا كانت المقبرة في قبلته وليس بينه وبينها إلا ثلاثة أذرع -متر ونص- ففي هذه الحالة يساء بهذا المصلي الظن وإن لم يكن معتقداً لذلك، فإذا كان مما يقتدى به ربما اتبع، هذا فلان صلى إلى المقبرة فلنصل، إذا كان فلان صلى إلى المقبرة فلنصلي إذا كان فلان من الناس يرجى فيه الخير والصلاح ومن الذين يقتدى بهم، وصلى كذلك نصلي كذلك معه.

فهذا كما قلنا تقليل حجم السترة أو الفاصل بين المصلي والمقبرة إلى هذا الحد أنا أقول في النفس منه شيء، ولذلك أقول لو ترك هذا، وقلنا الفاصل الذي هو الجدار الذي يفصل تماماً ولا يكون جدار المقبرة أو كان شارعاً أو كان مسافة بعيدة، فهذا تصح الصلاة، لأنه هنا ليس من شك في أن هذا قد يصلي لأصحاب القبور، لا، هذا يصلي لله، إنما كانت المقبرة في قبلته، وهذا حكم الله عليه.

فالمواضع التي نهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم أو نهى عن الصلاة فيها من ضمنها أو من أحدها المقبرة، فهي على هذا المقدار، إذا كان الصلاة إليها من غير حائل، وكان قريباً نقول أن هذا يكون في النهي، وإنما جاء النهي لسد الذرائع، وهذا من باب سد الذرائع، كما قلنا قد يظن الظن السيئ في صاحب هذه الصلاة التي صلاها وليس بينه وبينها حائل ولم يعتقد ذلك، أو قد يتخذ قدوة إذا كان ممن يقتدى به، يأتي بعض الجهال يقول فلان صلى إلى المقبرة نحن كذلك نصلي إليها، وهذا جائز ما دام فلان صلى دل على جوازها فيتخذوه قدوة بهذا، فلذلك نقول: **الذي يترجح** والله أعلم فيما نراه في هذه المسألة أنه ينبغي أن يكون هناك حائل بين المصلي وبين المقبرة، بما يكون جدار ليس له علاقة بسور المقبرة، أو يكون مسافة طويلة بمقدار الشارع، فإن تحقق ذلك فنقول الصلاة إلى المقبرة جائزة، وأما ما دون ذلك ففي النفس منها شيء، أما إذا كان في المقبرة أو قريب منها بدون حائل هذا بلا شك منهي عنه ولا تصح الصلاة إلى المقبرة على هذا الحد.